

الفصل الثامن

المناهج وطرق التعليم

المنهج صورة لأحوال المجتمع :

إذا شئنا أن نعرف العلة التي من أجلها وضع القابسي منهج التعليم للصبيان في الكتابيب ، أو أقره على النحو المذكور في رسالته ، فينبغي أن ننظر إلى حالة المجتمع في ذلك العصر ، لنرى مبلغ حاجاته ومطالبه . وعندئذ يتبين لنا السر الذي دفع المربين في الإسلام إلى تعليم الصبيان علوماً معينة ، منها يتألف مانسميه المنهج الدراسي على الإصطلاح الحديث المعروف الآن .

وقد يكون المنهج واقعياً ، وقد يكون مثالياً ، وفي الحالتين يستمد وجوده من المجتمع . فالمنهج الواقعي ، وهو ما يدرس بالفعل ، يستقي كياناً من المجتمع القائم ؛ أما المنهج المثالي ، فهو ما يطالب به المفكرون والمصلحون ويلائم صورة المجتمع المثالية التي يتخيلها هؤلاء المفكرون في مدنهم الفاضلة . ومنهج القابسي في التعليم واقعي . كما سبقت الإشارة إلى ذلك فهو يصف ما كان متبعاً فعلاً في الكتابيب الإسلامية في شمال أفريقية . وهذا المنهج المتبع في عصره هو أثر البيئة الاجتماعية .

يقول بيتس : « على المجتمع يقع عبء تعليم الأجيال الجديدة ، والمجتمع هو الذي يهيئ البيئة الصالحة لنمو الأفراد . وعلى الأفراد أن يعملوا عبء المسؤولية فيستجيبوا لنداء التعليم بحسن التعلم »^(١) . وقد أورد المؤلف تعريفين للتعليم ، الأول يرمي إلى تنبيه مواهب الفرد ، والثاني إعداد الفرد للحياة الاجتماعية . والمقصود بمواهب الفرد القوى العقلية المختلفة كالذاكرة والابتكار والذكاء والملاحظة وما إلى ذلك^(٢) .

Betts. Social Principles of Education. p. 30.

(١)

(٢) المرجع السابق ص ٤٤

ويقول ألبير مالو أستاذ التربية بجامعة السوربون : والآراء متفقة في جميع الشعوب الحديثة على أن التعليم يجب أن يعد الفرد للحياة الاجتماعية أكثر مما هو حاصل الآن^(١)

والرأى عندنا أن التعليم إعداد للحياة الاجتماعية ، ولاننكر أنه يأخذ بيد الفرد في طريق التقدم ، وبذلك يهيئه في نهاية الأمر للحياة الاجتماعية .

ولانستطيع أن نفهم الخلاف في مناهج التعليم خلال العصور المتعاقبة ، وفي الأمم المختلفة التي تعيش في عصر واحد ، إلا نتيجة اختلاف البيئات جميعاً . فإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن اليونان كانوا يعنون بتعليم الصبيان الرياضة البدنية بألوانها والموسيقى والأدب والقراءة والكتابة . وكانت عناية الإمبراطيين بالرياضة البدنية الشاقة شديدة ، على حين اتجهت أنظار الأثينيين إلى الموسيقى والأدب . ومناهج التعليم في الدولة الرومانية كانت تشبه إلى حد كبير ما عند اليونان ، لأن الدولة الرومانية ورثت حضارة اليونان وثقافتها . هذه المناهج كانت تلائم البيئة الاجتماعية في ذلك العصر . وهي مناهج تلائم الطبقة الأرستقراطية ، وتتفق مع انقسام الدولتين إلى طبقات فيها الأشراف والعامة . أما العامة فكانوا بعيدين عن التعليم لايحققهم نوره ، أما أبناء الأشراف فكانوا يهيئون لهذه الحياة الخاصة بما فيها من لهو وترف وزينة ومتاع . ولم تكن هناك مدارس بالمعنى الصحيح ، بل كان الغالب اتصال الطفل بمعلم خاص .

وإلى عهد المسيحية الأولى كانت جميع المدارس لا دينية . وكان الأطفال يعلمون القراءة في كتب مملوءة بالميثولوجيا . لذلك كان من الخطر على أبناء المسيحيين أن يتأثروا بما في تلك الكتب من آراء تخالف الدين . واستمر الصراع بين المسيحية والوثنية شديداً ، وتأثرت البرامج الدراسية بالنظام الروماني وبالكثيسة معاً . فقد كانت المعرفة باللاتينية ضرورية لفهم الإنجيل في الترجمة المقبولة التي قام بها سانت جيروم . ثم أصبحت المعرفة باليونانية ضرورية أيضاً^(٢) . ولما انتصرت المسيحية كان

Albert Millot, Les Grandes Tendances de la Pédagogie Contemporaine. Alcan. (٣)
1938. p. 17.

Adamson, A Short History of Education, p. 1 and 2.

(٤)

الأطفال يلحقون بالمدارس الكنسية يتعلمون فيها القراءة والكتابة والموسيقى الكنسية وبعض الحساب^(٥) . فالخلاف في البرامج الدراسية عند المسيحيين عما كان عند الرومان ناشئ عن الخلاف في الحياة الاجتماعية حيث اتخذ الدين المسيحي مكان الوثنية .

وظيفة المنهج تحقيق أغراض التعلم . وللمنهج وظائف ثلاث :

١ - إبراز القيم الاجتماعية في شعور الفرد .

٢ - حفز المواهب الفردية إلى النمو .

٣ - إعداد الفرد للحياة الاجتماعية^(٦) .

وهذه الوظائف كلها ترمى إلى نتيجة واحدة هي إعداد الفرد للحياة الاجتماعية .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على المنهج الذي وضعه القابسي لتعليم الصبيان نجد أنه متأثر بالبيئة الاجتماعية للمسلمين في ذلك العصر ، وأنه يهيئ الصبيان للحياة الاجتماعية المستقبلية ، وذلك ببيان قيمة العلوم الواجب معرفتها إلى نظر الصبيان ، وإبراز وجه أهميتها وضرورتها في عقولهم ، ثم تنمية المواهب الفردية التي تلائم المطالب الاجتماعية .

والبيئة الاجتماعية في عصر القابسي كانت بيئة دينية خالصة . لذلك نجد المنهج الدراسي يدور حول محور الدين ، ويهيئ الصبيان لهذه الحياة الدينية .

وينقسم المنهج الذي ذكره القابسي إلى قسمين : إجباري واختياري . فالعلوم الاجبارية هي القرآن ، والصلاة ، والدعاء ، وبعض النحو والعربية والقراءة والكتابة . والعلوم الاختيارية هي الحساب ، وجميع النحو والعربية ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها .

هذا المنهج المتبع في القرن الرابع الهجري هو الذي كان متبعاً في القرن الثالث أيضاً كما جاء في كتاب محمد بن سحنون . ولا حاجة بنا إلى بيان أن المنهج على هذا

Cubberly. History of Education. p. 100.

(٥)

Betts, Social Principles of Education, p. 247.

(٦)

النحو هو الذى كان متبعاً فى الكتابات الإسلامية منذ نشأتها ، وأنه ظل متبعاً إلى عهد قريب جداً فى الكتابات فى شتى الأقطار الإسلامية . بل تستطيع أن تجزم إذا وجدت كتاباً فى أى قطر إسلامى أن ما يدرسه الصبيان فى هذا الكتاب لا يختلف اليوم عما كان يدرس منذ ألف عام .

أما الخلاف الذى ذكره ابن خلدون فى طريقة التعليم فهو خلاف فى المظهر لا الجوهر . فبعض الأقطار كان يقدم تعليم الخط على تعليم القرآن ، والبعض الآخر كان يبدأ بتحفيظ القرآن ، يصحبه تعليم الخط أو يتأخر عنه قليلاً . أما الجوهر الثابت الذى لم يلحقه التغيير منذ ظهور الكتابات حتى عصور متأخرة ، بل حتى العصر الحاضر ، فهو تعليم القرآن والصلاة ، وما يصحب ذلك من معرفة للقراءة والكتابة وبعض النحو والعربية .

فى القرن الثامن الهجرى ، نجد الحافظ بن رجب البغدady يصف المنهج على النحو الآتى : « فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها ، والتقيد فى ذلك بالمأثور عن الصحابة وتابعيهم فى معانى القرآن والحديث ، وفيما ورد عنهم فى مسائل الحلال والحرام والزهد ، والرفائق والمعارف وغير ذلك » (٧)

ولانزال فى العصر الحاضر ، فى مصر وفى الأقطار العربية الأخرى ، نشهد هذا اللون من التعليم فى الكتابات . وقد سجل الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام صورة واضحة لحياة الكتاب فى العصر الحاضر لانهتقد أنها تختلف عن تلك التى كانت جارية فى عصر القابسى .

والمشاهد الآن (٨) فى مصر وجود نوعين من التعليم الأولى يسيران جنباً إلى جنب : النوع القديم الذى يعتمد على تعليم القرآن والكتابة فى الكتابات ، والنوع الحديث الذى يضيف إلى جانب ذلك مبادئ الحساب ومبادئ العلوم .

(٧) فضل علم السلف على الخلف للإمام أبى الفرج زين الدين الشهرىابن رجب الحنبل البغدady المتوفى سنة ٧٩٥ هـ - المطبعة النورية بالأزهر .

(٨) أظن أنه لاوجود اليوم للكتاتيب فى مصر ، بعد عشر سنوات فقط من الطبعة الأولى لهذا الكتاب . وقد اختفت تماماً مع هذه الطبعة الثالثة .

وسينتهى الأمر بالكتاتيب القديمة إلى الزوال عندما يطبق التعليم الإلزامى عن طريق الدولة ، فيزول آخر مظهر من مظاهر القديم .

هذا التحول الجديد دليل على تغير الحياة الاجتماعية ، ودليل على مسيرة الشرق للحضارة الحديثة ، والتقدم العالمى السريع .

على أن ثبات المنهج الدراسى هذه الفترة الطويلة من الزمان يحتاج منا إلى تفسير ؛ فالعلة فى هذا الثبات ترجع إلى سلطان التقاليد على المنهج ، والخضوع للتراث الموروث . وتأثير التقاليد الميل بالمنهج إلى المحافظة ، والنصوص الثابتة هى التى تحفظ المنهج^(٩) .

والقرآن نص المسلمين الثابت ، وكتاب الله لا مبدل لكلماته .

وستبقى برامج تعليم الصبيان عند المسلمين ثابتة ، مادام المسلمون متمسكين بدينهم وكتابهم ، إلا إذا اكتفى الناس بقدر يسير من الدين ، حتى يفسح المجال لدرس العلوم الحديثة كما هو واقع الآن .

أما القابسى فإنه لا يقبل التهاون فى تعليم القرآن ، ويستعبد بالله : « أن يتفق المسلمون على ترك القيام به ، ولو كان كذلك لكانت الهلكة المبيرة ، فأعوذ بالله من غضبه ، ومن أن ينتزع كتابه من صدور المؤمنين » ٣١ - ب .

هذه البيئة الدينية المستقرقة فى الشعور الدينى قد تغيرت الآن حتى بلغت حد التقابل فى بعض الممالك الغربية ، التى خلعت رداء الدين ، وعادت بالمدارس إلى اللادينية المطلقة . وهذا الانحياز الحديث يحمل روح الثورة على التقاليد ، فلا ندرى أنفطح هذه الثورة فيلغى الدين ، أم تنتصر المبادئ الروحية على الموجة المادية الطاغية فيعود الدين إلى مكانته .

وإننا نسوق هذه المشاهدات والوقائع من الماضى البعيد إلى الحاضر القريب ، لنبين أن مناهج التعليم تستمد وجودها من التيارات الفكرية التى تسود المجتمع . وقد كانت البيئة الاجتماعية فى عصر القابسى بيئة دينية بعيدة عن الروح المادى والترعة الإلحادية ، ولهذا ليس من الغريب أن يكون القرآن والصلاة وما يتصل

بالقرآن من علوم ضرورية لفهمه ، أول ما يتجه الناس إلى تعليمه لأبنائهم .
والقابسي يؤيد هذه الطريقة ويقرها ويطالب بدوام الاستمرار عليها .

العلوم الإجبارية في المنهج :

القرآن هو أول العلوم التي ينبغي أن يدرسها الصبيان ، بل هو المحور الذي يدور عليه التعليم في الكتابيب .

ووجه الضرورة في تعليم القرآن عند القابسي ، وعند غيره من الفقهاء ، ترجع إلى أسباب كثيرة : فالقرآن كلام الله ، وقد حث الله العباد على تلاوته في غير آية ، ذكر بعضها القابسي ، مثل : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » . وهنا نرى الجمع بين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ، والإحسان ، وهي أهم واجبات المسلم .

والقرآن مرجع المسلمين في معرفة العبادات والمعاملات ، ولا سبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن .

إلى جانب ذلك ، فإن الصلاة ، وهي ركن هام من أركان الدين ، لا تتم إلا بقراءة شيء من القرآن فيها ، فمعرفة القرآن ضرورية لآداء الصلاة المفروضة . وأقل جزء من القرآن تصح به الصلاة عند المالكية هو الفاتحة .

قال الدردير في شرح مختصر خليل في فقه المالكية : وإذا كانت الفاتحة من فرائض الصلاة ، فيجب على كل مكلف تعلمها إن أمكن بأن قبل التعلم ، ولو في أزمان طويلة وأيام كثيرة . ويجب عليه بذلك وسعه في تعلمها إن كان عسير الحفظ في كل الأوقات إلا أوقات الضرورة ، ووجد معلماً ولو بأجرة^(١٠) .

وللقرآن فضائل كثيرة ، وللنبي أحاديث تفيض بهذا الفضل ، مثل : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وفي ذلك حث على تعلمه وتعليمه . وقد أطال فقهاء المسلمين الذين كتبوا في التربية في ذكر فضائل القرآن ، وألف بعضهم كتباً

(١٠) شرح الدردير على مختصر خليل في فقه مالك ج ١ ص ١٠٤ .

منفصلة ، ورسائل خاصة في هذا الموضوع .

وقد انتهى الأمر بالفقهاء إلى فرض تعليم القرآن ، فقال صاحب مفتاح دار السعادة : « اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لثلاث ينقطع عدد التواتر فيه ، فلا يتطرق إليه التبديل ولا التحريف . وتعليمه أيضاً فرض ، وهو من أفضل القرب » ففى الصحيح : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١١) .

والقاسى وبعض من الفقهاء يبدعون فى المنهج بتعليم القرآن ، وكانت هذه هى العادة المتبعة . وقد أراد أحد العلماء وهو أبو بكر بن العربى أن يؤخر تعليم القرآن ، وأن يبدأ الصبى بتعلم الشعر والعربية ثم الحساب ، فأنكر عليه ابن خلدون ذلك قائلاً : « وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إثارة التبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن » (١٢) .

وقد جرت العادة أن يتعلم الصبيان جميع القرآن ، ويعرف هذا بالحنمة . على أن ختم القرآن لم يكن واجباً ، فقد يكتفى بثلاثة أرباع أو ثلثي أو نصف أو ثلث أو ربع القرآن ، حسب طاقة الصبى والظروف الخارجية الأخرى .

ويشترط القاسى فى تعليم القرآن : حسن الترتيل ، وجودة القراءة ، وحسن الوقف ، والأخذ عن مقرر حسن ؛ وهو ينصح بقراءة نافع .

أما تعليم الصلاة فهو فرض عين على جميع المسلمين ، كما ذكر الفقهاء الذين قسموا الفرض قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية . ولذلك قال القاسى : ينبغي للمعلم أن يعلمهم الصلاة إذا كانوا بنى سبع ، ويضربهم عليها إذا كانوا بنى عشر . ويلزمه أن يعلمهم الوضوء للصلاة ، وعدد ركوعها وسجودها ، والقراءة فيها ، والتكبير ، والإحرام ، والسلام ، والقاسى لا يكتفى بتعليم الصلاة المفروضة ، وإنما يذكر أنه : « ينبغي أن يعلمهم سنن الصلاة ، حتى يعلمهم دينهم ، الذى هو

(١١) مفتاح السعادة ومصابح السيادة - طاش كبرى زاده القوف سنة ٩٥٣ ، ج ٢ ص ٢٥٩ .

(١٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ .

تعبدهم الله عز وجل وسنة نبيهم» .

فالصلاة هي الواجب الديني المفروض على الذكور والإناث . وقد سمي النبي عليه السلام الصلاة : عماد الدين ، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة (١٣) .

ولا عذر في التخلف عن الصلاة . وفي ذلك يقول الإنبائي : «وأن لا يسامح (أى الصبي) في ترك الطهارة والصلاة ونحوها» .

ومن الأمور التي يرى القاسبي وجوب تعليمها الدعاء : «ليرغبوا إلى الله عز وجل ، ويعرفهم عظمتهم وجلالته ، ليكبروا على ذلك» .

والصلاة مع أنها عبادة فيها ركوع وسجود لا تخلو من الدعاء ، وقد جمع الله بين العبادة والدعاء في فاتحة الكتاب قائلاً : «إياك نعبد وإياك نستعين» . فالجمع بين وجوب تعليم الصلاة والدعاء والقرآن ليس غريباً ، لأن هذه الأمور الثلاثة تجمع بين الفكر والوجدان والعمل ، وترمى إلى غرض واحد هو معرفة الله معرفة صحيحة كاملة ، والإيمان به إيماناً صادقاً ، ولا يتم ذلك إلا بالعبادة والحمد والشكر والتسبيح ، والالتجاء إليه بطلب الهدى والرحمة ، وكشف المصيبة والغمة .

وحفظ القرآن يزيد في معرفة الإنسان لله ، لما جاء فيه من آيات دالة على الوحدانية ، دافعة إلى الإيمان الصحيح ، وما فيه من وعد ووعد ، وترغيب وترهيب ، ووصف للجنة والنار ، وما فيها من نعيم وعذاب .

وفي الأثر أن الرسول كان يقرأ في الصلاة سوراً طويلة بأكملها ، كالبقرة وآل عمران والنساء ، وعلى ذلك جرى الصحابة والتابعون . وقد كان القاسبي أميناً على هذه السنة فقرر أن القرآن في الصلاة خير من القرآن في غير صلاة . لهذا لم يكن من الغريب أن يسعى الناس إلى تحفيظ أبنائهم القرآن بأكمله ، تبركاً به كما يقول ابن خلدون ، وزيادة في القرب من الله على رأى القاسبي .

على أن المعرفة الصحيحة للقرآن تستلزم العلم بالنحو لإعراب الكلمات إعراباً (١٣) تفسير النسخ لأية : الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . في أول البقرة .

صحيحاً ، والعلم باللغة العربية لفهم معاني القرآن ، والعلم بالهجاء والخط لكتابته والنطق به صحيحاً .

والإعراب يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين^(١٤) .

وذكر القاسبي عن ابن وهب : « رأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيب بوجهها فيهلك » ٤٦ - ١ .

وقد نص الله في أول سورة نزلت على فضل القلم والكتابة فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فبِه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو . وما دَوَّنت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة . ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا^(١٥) .

فالنحو والعربية والخط من « معاني التقوية على القرآن » ٤٣ - ١ . وتعليمها واجب على المعلم كما نقل القاسبي على ابن سحنون : « إنه ينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن ، ذلك لازم له ، والشكل والهجاء والخط الحسن » .

والاهتمام بحسن الخط كان عادة جارية في بلاد المغرب ، وهو يدل على تذوق الجمال ، والعناية بالكمال والإتقان . ولا ننسى أن المسلمين كرهوا بل حرموا تصوير ذي الروح لما فيه من تشبيه بالوثنية ، ولهذا السبب اتجه الروح الفنى عندهم إلى الزخرفة الهندسية ، والبراعة في رسم الخط على أشكال مختلفة جميلة ، والآيات القرآنية المسطورة على جدران المساجد شاهد على الإبداع في الفن . لهذا حلت العناية بحسن الخط في برامج الدراسة الإسلامية محل الرسم والتصوير عند غير المسلمين .

ويرى ابن خلدون أن حسن الخط يتصل بالحضارة ، وردأته بالبداءة : « لذلك كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ الغاية من الإحكام والإتقان »

(١٤) الإتقان في علوم القرآن لسيوطي ج ١ ص ٣٠٦ طبعة محمود توفيق بالأزهر .

(١٥) تفسير الكشاف للزعرى .

والإجادة ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . ثم ترفت الخطوط لما استبحر الإسلام في العمران . . « وكان الخط البغدادي معروف الرسم ، وتبعه الإفريقي ويقرب من أوضاع الخط الشرقي وتميز صنف الخط الأندلسي »^(١٦) .

والإجادة في الخط ، والحذق في رسم الحروف طبقاً لقوانين وأشكال متعارفة ، مما يؤدي إلى ضبط القراءة والبعد عن التحريف . ولا تخفى أهمية ذلك في قراءة القرآن خاصة ، لأن التبديل في كلمات القرآن مما يأباه الدين وينهى عنه ، فإذا صارت الخطوط ماثلة إلى الرداءة ، بعيدة عن الجودة « صارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لتصفحها منها إلا العناء والمشقة ، لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف »^(١٧) .

وقال صاحب الإقتان : « يستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبيينها وإيضاحها »^(١٨) .

ونذكر لهذه المناسبة أن : « أهل المشرق لا يعلمون الصياني الخط المكاتب بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد ، كما نتعلم سائر الصنائع . وإذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الإجادة »^(١٩) .

من الطبيعي إذن أن ينص المنهج الإجماعي على تعليم القرآن والصلاة والدعاء والكتابة والنحو وبعض العربية ، فكلها ترمى إلى غاية واحدة هي معرفة الدين والعبادات مما هو مفروض على المسلمين كافة .

العلوم الاختيارية في المنهج :

العلوم الاختيارية هي الحساب ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها ، وجميع النحو والعربية .

(١٦) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(١٧) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٥ .

(١٨) الإقتان ج ٢ ص ٢٨٩ .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٨ .

ومن الواضح أن هذه العلوم تختلف عن سابقتها في بعدها عن الصفة الدينية ، وإذا كان بعض النحو والعربية مما يجب درسه ، فإن هذا البعض ضرورى لفهم الدين . أما جميع النحو وجميع العربية ، فما يعتبر خروجاً على الغاية الدينية إلى غاية أخرى .

ولذلك كره أحمد (وهو الإمام أحمد بن حنبل) التوسع في معرفة اللغة وغريبها وأنكر على أى عبدة توسيعه في ذلك وقال : هو يشغل عما هو أهم منه (٢٠) . وفي الحديث : « تعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا » (٢١) . ومن الطبيعى الاختصار في المنهج على قدر من العلوم دون الآخر ، واختيار علوم معينة وإهمال باقى العلوم ، إذ لا يحق أن الأهم التى تضرب في الحضارة وترتفع في المدينة . تتعدد عندها المعارف والصنائع ، ولا يستطيع الفرد الواحد الإحاطة بها جميعاً . واختيار المنهج المناسب للطفل من بين هذا الحشد من المعرفة النظرية والعملية يتوقف على الغاية من التعليم ، وعلى حاجة المجتمع ، وعلى طبيعة الطفل . ولكن المبدأ المسلم به عند جميع علماء التربية ، هو الاختصار في المنهج على بعض العلوم دون البعض الآخر .

قال المأمون يصف العلوم ويبحث على التخصص : « ولوقلت إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسرقعه ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت . فإذا كان الأمر كذلك فابدموا بالأهم فالهم ، وابدءوا بالفرض قبل النفل » (٢٢) .

وأهمية العلوم مسألة اعتبارية ، تتوقف على الغرض المنشود ، والمطالب الاجتماعية ونوع الإعداد المطلوب .

فعلم الملوك : النسب والخبر وجمل الفقه . وعلم التجار : الحساب والكتاب . وعلم أصحاب الحرب : درس كتب المغازى وكتب السير (٢٣) .

(٢٠) فضل علم السلف لابن رجب الحنبل . (٢١) المرجع السابق .

(٢٢) البيان والبيان - الجاحظ ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٢٣) البيان والبيان - الجاحظ - ج ٣ ص ٢٢٣ .

ولكن القابسي لا يريد أن يعلم ملوكاً أو تجاراً ، أو قادة حرب وساسة دول ، إنما يريد أن يعلم أبناء المسلمين لينشأوا على الإسلام ، ولا يعنيه ماذا يصيرون فيما بعد .

فالمناهج الذى يذكره يخصص جميع الصبيان فى السن التى تسبق التخصص ، سواء استكمل الصبى التعليم ، أم انقطع عنه وتوجه إلى احتراف صناعة يكسب منها معاشه .

وقد يتطرق إلى الذهن أن تعليم الحساب لا صلة له بالدين . فعلماء التربية فى العصر الحاضر ينصون على تعليم الحساب ، إما لفائدته العملية فى الحياة ، وإما لقيمته فى التدريب على التفكير الصحيح ، لأن الرياضيات علم العلاقات الضرورية المبسطة .

أما فقهاء المسلمين فقد نظروا إلى الحساب من وجهة نظر دينية ، وعندهم أن الحساب فرض كفاية ، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها ، وأما ما بعد فضيلة لا فريضة : « فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه » (٢٤) .

ويذهب ابن رجب البغدادى مذهب الغزالى فيقول : « كذلك الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به قسمة الفرائض والوصايا والأموال التى تقسم بين المستحقين لها . والزائد على ذلك مما لا ينتفع به إلا فى مجرد رياضة الأذهان وصلتها لا حاجة إليه ، ويشغل عما هو أهم منه » (٢٥) .

فالغزالى وغيره يرون فى معرفة الحساب مصلحة دينية . أما الجاحظ فإنه يرمى من معرفته إلى النفع الاجتماعى وضبط الحضارة والعمران ، وفى ذلك يقول : « وأما القول فى العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر

(٢٤) الإحياء للغزالى ج ١ ص ١٥ .

(٢٥) فضل علم السلف على الخلف .

نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة . وفي عدم اللفظ ، وفساد الخط ، والجهل بالعقد فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ومصلحة ونظاماً^(٢٦) .

ولا ندرى أأراد القابسي من تعليم الحساب المصلحة الدينية أم الاجتماعية أم كليهما معاً . وأكبر الظن أنه يرمى إلى نفع الحساب في كمال المعرفة الدينية الصحيحة على مذهب الفقهاء وهو في ذلك يقول : « ينبغي أن يعلمهم (أي المعلم) الحساب ، وليس ذلك بلزوم له ، إلا أن يشترط عليه » ٤٤ - ١ .

وهذا يؤيد وجهة نظرنا القائلة بأن الغرض من تعليم الحساب عند القابسي هو المصلحة الدينية لا الاجتماعية . ولو كان الأمر غير ذلك لألزم تعليمه على الإطلاق ، دون التعليق بشرط رضا الآباء .

وتعليم الشعر موضع جدل بين الفقهاء . وقد عرّض القابسي هذا الجدل بين الأنصار والمعارضين ، ثم رجح تعليمه على وجه الاختيار فالك وسحنون يأبيان تعليم الشعر بالأجر إذا لم يكن القصد تعليم القرآن والكتابة . وابن حبيب لا يرى بتعليم الشعر بأساً إلا أنه يكره من الشعر : « ما فيه ذكر الحمية والختا أو قبيح الهجاء » .

وقد اعتمد القابسي في تعليم الشعر على أحاديث للرسول ، منها : « إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » ، ومنها : « إن من الشعر لحكمة » . وقد شك القابسي في رواية الحديث الأول ، ثم أثبت حديثاً لم يشك في نسبه إلى النبي ، وهو : « لأن يمتلي جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلي شعراً » ، وقد فسر القابسي هذا الحديث بأن يكون الشعر غالباً على الإنسان حتى يصدّه عن ذكر الله والعلم والقرآن .

ومن الفوائد التي يحنيها من يحفظ شيئاً من الشعر أنه : « يقيم لسانه ويفصحه ويأنس إليه في بعض الأوقات ، ويستشهد به فيما يريد بيانه » ٥٤ - ب .

وقد عابوا على العرب إهمال الفنون في مناهج التعليم ، وها نحن أولاء نرى القابسي يطلب تعليم الشعر ، وهو لون من ألوان الفن ، ولم يغب عن نظر القابسي قيمة الشعر الفنية وأثرها في النفس الإنسانية . ذلك أن الإحساس بالجمال ، وتذوق الفن ، من عوامل الراحة النفسية ، أو الأُنس على حد قول القابسي . وقد رأينا هذه النزعة المتجهة نحو الفنون الجميلة بادية في العناية بحسن الخط ، ونحن نراها الآن في تعليم الشعر ، وهو نوع من الأدب ، وفرع من الفن .

وقد دار مثل هذا الجدل في العصر الحاضر حول قيمة الفن في التعليم ، وفي الحياة . وهل الأهم العلوم الطبيعية أو الأدبية أو الفنية ، وأثر كل ذلك في تربية الأطفال .

ويرى دوركهيم^(٢٧) أن حب الفنون الجميلة وتذوق الجمال ، مما يؤدي إلى تحرر المرء من نفسه ، فيخفف عنه عبء الحياة . فالفن مسيل إلى الراحة النفسية لأنه يخفف عن العين مشاغل الحياة اليومية .

ولكن ميدان الفن هو الخيال لا الحقيقة . وجمال الآثار الفنية مستمد من إحساس الفنان لا من حقائق الأشياء . ولذة الفن ناشئة عن تأثيره في الخيال لا في الحواس والعقل . ويحرك الفن الخيال إلى العمل ، والخيال أكثر العمليات النفسية مرونة وأقلها جموداً . لهذا كان ميدان الفن بعيداً عن عالم الحقيقة مع أن عالم الأخلاق هو الحقيقة نفسها . وهنا ينتهي دوركهيم إلى هذه النتيجة وهي أن الفن والأدب لا يصلحان أساساً للسلوك والعمل .

وقد انتهى سبنسر إلى هذه النتيجة نفسها ، ولهذا يجعل أماما السلوك في الحياة تعليم العلوم الطبيعية ، لأنها تعرفنا حقائق الأشياء على الوجه الصحيح^(٢٨) . وقد أشار القرآن إلى ابتعاد الشعر عن عالم الحقيقة قائلاً : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

ومع ذلك فالتمييز الحاد بين الفن والعلم ، والحقيقة والخيال « فيه كثير من

الافتعال ، لأن الحقيقة والخيال قطعة واحدة في عقل الإنسان ؛ والفن جهد للتعبير بطريقته الخاصة عن أغوار الحقيقة وما فيها من أعماق» (٢٩).

وقديماً وحد أفلاطون بين الحق والخير والجمال في المثال الأول .

وقد كان الغرض الأول الذي يرمى إليه القابسي هو تهيئة الأطفال إلى معرفة الخير أولاً وقبل كل شيء . وذلك عن طريق الفن ، ولا بأس عنده بقدر من الفن الجميل إذا كان هذا القدر لا يتعارض مع معرفة الخير والعمل به .

ولهذا لم يقف القابسي في سبيل تعليم الشعر ، بل نصح منه بمقدار .

ومن العلوم الاختيارية التي لا يرى القابسي ما يمنع تعليمها : « أيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوى المروءات » ٤٤ - ب .

هذه المادة تعرف في المناهج الحديثة بعلم التاريخ السياسي .

وبعض علماء التربية يقدمون علم التاريخ في الأهمية بالنسبة للطفل على العلوم الطبيعية ، لأنه أكثر مساساً بمشاعر الأطفال ، وألصق بحياتهم ، وأنفع في المعرفة بالماضي وماله من صلة وثيقة بالحاضر .

والطفل جزء من الحياة يتحرك في العالم الخارجى المحيط به ، وسلوكه في هذا العالم استجابة للمؤثرات الخارجية ؛ وهذه الاستجابة نتيجة فهم العالم وإدراك الأشياء . والعالم الخارجى بالنسبة إلى الطفل هو عالم الأشياء وعالم الإنسان . ولابد لمن يعيش في هذه الحياة من إدراك الأشياء وحقائقها ، ومعرفة الإنسان وطبيعته . روسو وسبنسر وغيرهما ممن يبدءون بتعليم الأطفال العلوم الطبيعية يجعلون تاريخ الإنسان في المحل الثانى .

فدراسة التاريخ على أى الحالات من العلوم اللازمة لتثقيف الطفل .

والقابسي يريد من تعليم التاريخ أن يكون محرّكاً لهمم الأطفال نحو أعمال البطولة ، وباعتاً لهم على أفعال الخير . والغرض من علم الرجال التشبه بالأبطال ، والتشبه بالرجال من الكمال . والغاية من سير ذوى المروءات القدوة في السبق إلى الخيرات .

والمحاكاة فطرة نفسية تدفع الأطفال إلى تقليد الأعمال من غير قصد أو شعور .
 وذكر الإنباني : « أن يتعلم الطفل القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار
 وأحوالهم ، لينغمس في نفسه حب الصالحين » . وهذا المؤلف يقصر فائدة التاريخ
 على ناحية واحدة هي ناحية الصلاح والخير .

وتعليم السير وحكايات الأبرار وأيام العرب وأخبارها ، زيادة فضل على ما جاء
 في القرآن من قصص الأمم السالفة وأخبار الأولين ، ففيه من تاريخ الغابرين الشيء
 الكثير وقصص القرآن يرمى إلى غاية دينية وخلقية ، فالظلم والفساد مما يؤدي إلى
 الهلاك ، والله هو الذي يصب على المفسدين أسواط العذاب ، إن ربك لبالمرصاد .

نقد منهج القابسي :

إذا نظرنا إلى المنهج الذي وضعه القابسي في ضوء التربية الحديثة ، أخذنا عليه
 أمرين : الأول أنه يغفل نفسية الطفل ومراعاة مراحل نموه ، والثاني إهمال العلوم
 الطبيعية والرياضة البدنية .

ولا يعاب القابسي إذا كان قد أغفل اعتبار الحياة النفسية للأطفال ، فهو عيب
 العصر كله في الشرق والغرب . ذلك أن علم النفس الحديث لم يتحرر من الفلسفة
 إلا في عصر متأخر جداً ، فقد انصرف العلماء إلى البحث عن النفس لا عن
 مظاهرها ، ولم يعنوا بتقييد الأحوال النفسية تقييداً كاملاً صحيحاً يكون أساساً
 لتفسير سلوك الإنسان . وإلى جانب ذلك أخطأ جميع الأقدمين في نظرهم إلى
 الأطفال نظرهم إلى الكبار . ويرجع الفضل في تصحيح الموقف من الطفل ، وبيان
 أن حياته النفسية تختلف عن حياة البالغين إلى روسو في القرن الثامن عشر ، ويعتبر
 كتابه إميل نقطة التحول في التربية الحديثة .

ومع ذلك فاحترام ميول الطفل ونزعاته عند وضع المنهج الدراسي ، مما يصعب
 تنفيذه ، فالطفل إلى سن السادسة بل السابعة يميل إلى اللعب والحركة ، فهل نركه
 في هوه الخربلا نعلمه القراءة والكتابة ؟ ومنَ الأطفال يحب التقييد أمام الألواح
 والأوراق ليخطط الحروف ويركب الكلمات ؟ فالجتماع يريد من الطفل حين يكبر أن

يكون قد تعلم الكتابة حتى يفرغ إلى معرفة باقي العلوم التي اتسعت دائرتها إلى حد كبير مع تقدم الحضارة السريع .

أما القول بتعليم الأطفال الكتابة والقراءة عن طريق اللعب والتشويق كما هو الحال في رياض الأطفال ، فهو قول ينصب على الطريقة لا على المنهج الدراسي . ومهما يكن من شيء فالطفل لا يدرك ، ولا يستطيع أن يعرف قيمة هذه العلوم المختلفة التي يلقنها ، حتى نقول إن قيمة الشيء هي التي تجتذبه إلى الإقبال عليه بالرغم من تعارضها مع ميوله . فهو إذن يدرس العلوم المختلفة برغم أنه . إننا نقدم العلوم إلى الطفل كما نقدم إليه الدواء ، فهو لا يحب الدواء ولا يدرك نفعه في الشفاء ، وقيمته في جلب الصحة والعافية ، وإنما يدرك شيئاً واحداً هو أنه لا يميل إلى الدواء ولا يريد تناوله . ويصطنع الآباء الحيلة في تقديم الدواء ، بدسه مع الحاوي ، أو الوعد بعمل شيء مما يميل إليه الطفل ، أو إرغامه في آخر الأمر على شرب الدواء بالعنف .

وررياض الأطفال كالحاوي من الدواء .

فالطفل يريد شيئاً ، والمجتمع يريد له شيئاً آخر . والمجتمع هو الذي ينتصر آخر الأمر ، فيبني للطفل ما ينبغي أن يتعلمه ، والدليل على ذلك اختلاف المناهج باختلاف الأمم .

وكانت إرادة المجتمع في عصر القابسي أن يتعلم الطفل القرآن وما يمت إلى القرآن ! بصلة ، وكم يفرح الأب عندما يختم ابنه القرآن ، فيقدم إلى معلم الكتاب الهدايا جزاء الحزمة ، حتى لقد أصبح أجر الحزمة واجباً على الآباء . فالآباء أنفسهم ، أو الشعب على الاصطلاح الحديث ، كان يطالب بتعليم القرآن ، ولا يفتقر التهاون في ذلك .

ولم يكن تعليم القرآن رأى الشعب ونصيحة الفقهاء من علماء التربية فحسب ، وإنما كان رأى الفلاسفة أيضاً . فهذا ابن سينا يقول : « فإذا اشتدت مفاصل الصبي ، واستوى لسانه ، وتنبأ للتلقين ، أخذ في تعلم القرآن وصوّره له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين ، وإذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة

نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه» (٣٠)

وليس لنا أن نعجب من رأى ابن سينا فهو القائل فى سيرة حياته : إنه ختم القرآن ، وأتى على كثير من الأدب ، وهو ابن عشر شنين .

ولم تبدأ دراسة العلوم الطبيعية إلا من عصر النهضة ، وقد درج الأقدمون على احتقار الصناعة لأنها مخصوصة بالعبيد ، أما الأشراف فلا يليق بهم إلا الاشتغال بالأعمال العقلية . كانت الحال كذلك عند اليونان كما كانت عند العرب . ثم إن تجارب المعامل وهى الأساس فى كشف العلوم الطبيعية كانت تحوطها الأسرار ويغمرها السحر والشعوذة ، ويهاجمها الجمهور باعتبار أن أصحابها يشتغلون بالكيمياء مما يرادف السحر فى ذلك الزمان . لهذا انصرف العلماء عن البحوث التجريبية خشية التعرض لغضب الجمهور ، واحتقار المجتمع ، وامتنان الكرامة الشخصية .

وظهر بىكون فى القرن السابع عشر فشق طريق التجريب أمام العلماء ، ووصف طريقة الاستقراء ، ونصح بالنظر فى كتاب الطبيعة . ونادى روسو بنفس المبدأ وهو القراءة فى كتاب الطبيعة المفتوح لافى بطون الكتب المحيرة على الأوراق . وهذه دعوى جديدة تطالب أولاً بمعرفة الأشياء الخارجية المحيطة بالإنسان أو عالم الطبيعة ، وتطالب ثانياً أن تكون الطريقة لهذه المشاهدة والاستقراء والتجريب .

ثم استقرت المناهج الحديثة وعلى رأسها دراسة العلوم الطبيعية . هذا التحول فى المناهج ناشئ عن التطور الذى لحق المجتمع ، وأهم ما يمتاز به هذا التحول الانصراف إلى عالم المادة ، والنظر فى سفر الطبيعة ، لتسخير القوى الكامنة فى أرجاء الأرض لمصلحة الإنسان .

ولم ينه القرآن عن النظر إلى الطبيعة ، بل حث الإنسان على التأمل فى المخلوقات فى أكثر من آية ، حتى يصل الإنسان من معرفة أمور الطبيعة إلى عظمة الخالق ووجوده . ولكن المسلمين لشدة غيرتهم على الدين ، وخوفهم من التحول عنه ،

وجدوا من السلامة الاعتماد عن البحث في الطبيعة حتى لا يصرفهم ذلك عن الإيمان والعبادة .

ومن الذين هاجموا العلوم الطبيعية هجوماً عنيفاً ، وصرفوا الناس عن دراستها الغزالي ، للعلة التي ذكرناها ؛ قال : « الطبيعيات بعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم . وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو شبه بنظر الأطباء . . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها . فإذا كان الكلام كان من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية ، حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع^(٣١) » .

فإذا كان القابسي لم يوجه الاهتمام إلى العلوم الطبيعية بل أهملها الإهمال التام ، فذلك لأن حفظ القرآن وتعلم الكتابة والنحو والعربية يستغرق كل وقت الصبيان فلا يتسع بعد ذلك لأى نوع من الدراسة . يضاف إلى ذلك أن الفقهاء كانوا ينظرون بعين الريبة إلى العلوم الطبيعية . والجمهور على هذا الرأي أيضاً . فإذا التمسنا العذر في نقص المنهج من درس الطبيعة . فلا عذر عن التخلف بالاهتمام بالرياضة البدنية . وإنما لنجد السلف في صدر الإسلام يعنون بألوان الرياضة التي تطبع الأطفال على الحركة وتبعث فيهم القوة والحياة والصحة والنصائح كثيرة تدعو إلى الاهتمام بالرماية والسباحة وركوب الخيل .

وإهمال مثل هذا التدريب في الكتابات يرجع إلى أسباب : منها أن معلم الكتاب فقيه تخصص في العلوم الدينية . ويعمل على تحفيظ الصبيان القرآن والكتابة وليست صناعته الرماية والسباحة .

ولا يخفى أن الكتاب كان مكاناً متواضعاً لا يزيد على حجرة أو حانوت في دار ، يجلس للتعليم فيه معلم واحد في الغالب . فلم تكن هناك مدرسة خاصة ، ذات بناء مما يمتاز به المدارس ، وفيها فناء يلعب فيه الصبيان ويتسع لهذه الحركات الرياضية المطلوب تعلمها .

وكانت الغاية القصوى من طلب العلم معرفة الله ، والتطبع على الدين القويم والأخلاق الفاضلة ، فصرفت الغاية الدينية أنظار الفقهاء عن الغايات الدنيوية . وصحة الأبدان لازمة على كل حال ، ولكن الرياضة البدنية لا ترمى إلى صحة البدن فحسب بل إلى قوته وجهالة ورشاقته ، وهذه الغايات مما لا يدخل عند الفقهاء في حساب .

اليوم المدرسى والأسبوع الدراسى :

أحوال الدراسة فى الكتاتيب ، واختيار الصبيان ، وتوزيع المنهج على اليوم المدرسى وبطالة الصبيان ، كل ذلك مستمد من الغاية من التعليم ، وطبيعة المنهج ، والحالة الاجتماعية .

فبالأسبوع الدراسى يبدأ فى صباح السبت ، وينتهى فى عصر الخميس . وبذلك يكون يوم الجمعة بطوله من أيام العطلة . « فدراسة الصبيان أحزابهم وعرضهم إياه على معلمهم فى عشى الأربعاء وغدو الخميس إلى وقت الكتابة . والتخاير إلى قبل انقلاهم نصف النهار ، ثم يعودون بعد صلاة الظهر إلى الكتاب ، والخييار إلى العصر ، ثم ينصرفون إلى يوم السبت ييكررون فيه إلى معلمهم » ٦٠ - ب .

من هنا يتضح أن القابسى كان يعتبر الأسبوع وحدة تعليم ، راقب فيها المعلم أعمال الصبيان ، ويقف عند آخر الأسبوع وقفة قصيرة ليرى مبلغ ما حصلوا . ويدرس الصبى خلال هذا الأسبوع القرآن والكتابة وسائر العلوم الأخرى المذكورة فى المنهج .

وتوزيع هذه العلوم على اليوم المدرسى يجرى كالنظام الآتى :

- ١ - يدرس الصبيان القرآن من أول النهار فى وقت مبكر حتى الضحى .
- ٢ - يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر .
- ٣ - ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغذاء ويعودون بعد صلاة الظهر .
- ٤ - تدرس بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر وأيام العرب والحساب ، من بعد الظهر إلى آخر النهار .

فأول شيء يبدأ الصبي بدراسة القرآن ، لأنه أهم العلوم ، وأكثرها قيمة في المنهج ، وهو المقصود من التعليم .

وكانت العادة أن ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغداء ، ذلك أن الكتاب مكان متواضع لا يشبه مدارس الدول الحديثة التي تقوم بالإتفاق على التعليم ، وتنشئ أبنية مخصصة للمدارس مجهزة بالمطاعم ، وتعنى بإطعام التلاميذ . والغالب أن الكتاب كان يقع قريباً من بيوت الصبيان ، حيث كانت المدن صغيرة الحجم لا تبلغ من الاتساع ما هي عليه الآن .

وقد أوصى القابسي المعلمين بعدم حرمان الصبي الانصراف إلى بيته لتناول الطعام ، مع التنبيه عليه بسرعة العودة ، ونستطيع اعتبار فترة الظهر راحة من التعليم .

وبطالة يوم الجمعة الغرض منها راحة الصبيان ، ويوم الجمعة مُعَظَم عند المسلمين كما جرت به العادة .

وبطالة الأعياد تجري حسب العرف أيضاً ، فقد تكون يوماً واحداً في عيد الفطر ، وقد تبلغ ثلاثة أيام في عيد الأضحى ، وقد تصل إلى خمسة . وكذلك الشأن في باقي الأعياد التي اصطلاح الناس على البطالة فيها .

ويؤذن في بطالة الصبيان من أجل الختم يوماً أو بعض يوم ، إجلالاً لهذا الحادث المبارك في تاريخ الصبي ، حيث يصبح بعده من حملة كتاب الله . وقد نبه الفقهاء إلى وجوب الراحة في التعليم وأثر ذلك في الصبي ، كما قال الإنبائي « وإلا كان متسبباً في موت قلبه وإبطال ذكائه ، وتنغيص عيشه حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً » (٣٢) .

والترية الحديثة تهتم بأوقات الراحة . ولكن هذه الأوقات ومدتها وموضعها من اليوم المدرسي تستند إلى التجارب العلمية التي أجريت على التعب في علم النفس .

الفصل بين الذكور والإناث في التعليم :

وقد اقتصرت الكتابات على الذكور دون الإناث وفي ذلك يقول سحنون :
« أكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن » ٥٧ - ١ .
وهذه القضية قديمة وحديثة . وقد استقر الرأي الآن في دول الغرب بعد
البحث الطويل والملاحظات الاجتماعية المستندة إلى الواقع على الجمع بين الجنسين
في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، ثم الفصل بينهما في مرحلة التعليم
الثانوى ، ويعود الاختلاط في الجامعة .

ومرحلة التعليم الابتدائى تصل إلى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أى قبل
البلوغ ، خصوصاً في دول الغرب التى تتأخر فيها سن البلوغ لبرودة الجو والفصل بين
الجنسين بعد هذه المرحلة في العصر الحديث الذى بلغت فيه حرية المرأة حداً لم تصل
إليه من قبل ، يدل على ما يتم بينهما من فساد إذا تركت الصلة بينهما مطلقة من غير
رقابة .

وفي عصر القابسى كان بعض الصبيان يستمرون في الكتاب إلى سن الاحتلام ،
وهذا خشى على الإناث الفساد .

ولم يكن هذا الخوف مقصوداً على إفساد الإناث مما دعا إلى إبعادهن من
الكتاب ، بل شمل الخوف الغلمان أيضاً ، ولهذا نص على الحذر من إفساد الغلمان
بعضهم بعضاً : « إذا كان فيهم من يناهز الاحتلام » ٥٧ - ١ ، مما يخشى معه
الفساد .

وقد أشار القابسى إلى الرذائل الجنسية إشارة خاطفة دون التعمق في وصف
العلاج الواجب في مثل هذه الأحوال ، تاركاً للمعلم حرية التصرف بمحكمته وطريقته
الخاصة في معالجتها .

على أن النهى عن تعليم البنات في الكتاب لا يعنى أنها لا تتعلم . فقد أُلزم
القابسى من قبل تعليمها لضرورة معرفتها الدين والعبادات . وقد جرت العادة على
تعليم البنات داخل الدور . والنساء الكاتبات والشاعرات اللاتي نجد ذكرهن في

كتب الأدب أكبر دليل على انتشار التعليم بين النساء . فالعلة في منع البنات على الذهاب إلى الكتاتيب ترجع إلى الغيرة على الأخلاق وحفظ الدين .

النهى عن تعليم غير المسلمين في الكتاتيب الإسلامية :

وما يلتفت النظر على عدم تعليم أبناء النصارى في الكتاتيب ، وكذلك تعليم أبناء المسلمين في المدارس النصرانية . فقد كره مالك أن يطرح المسلم ولده في كتاب النصارى ، ووافقه في ذلك ابن وهب وسحنون وابن جبيب . مثل مالك : « هل يعلم المسلم النصارى ؟ فقال : لا . وقال : لا أرى أن يترك أحد من اليهود أو النصارى يعلم المسلمين القرآن » ٤٧ - ب .

وتعليل القابسي لذلك يرجع إلى الآية الكريمة « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يسه إلا المطهرون » . فالكافر نجس ، ولذلك ينهون أن يعلموا الخط العربي والمجاء حتى لا يمسوا المصحف ٤٨ - ١ .

هذه هي القاعدة الفقهية التي حكم بها مالك وأعلام مذهبه من بعده ، وتبعهم القابسي على هذا الرأي وهو تحريم تعليم النصارى في كتاتيب المسلمين ، وتحريم تعليم أبناء المسلمين في كتاتيب النصارى .

وليس لنا أن نعجب لهذين الحكيمين ، إذا أنزلنا الروح الدينية الذي كان مسيطراً على المجتمع في ذلك العصر منزلة الاعتبار . فقد كان الدين شديد السلطان على النفوس ، والقرآن محترماً احتراماً شديداً .

ونحن إذا رجعنا إلى المسلمين الأوائل نجد أن النهى هو الذي افتدى أمرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة ، وهؤلاء الذين اقتدوا أنفسهم بالتعليم من المشركين . وإذا فالتبى نفسه لم يرتعليم المشركين أبناء المسلمين بأساً لحاجته إلى نشر الكتابة . ولما استقر الإسلام ، ودخل الفرس والروم تحت راية المسلمين ، لم يتحولوا إلى الإسلام دفعة واحدة . والمعروف أن كثيراً من المفكرين في صدر الإسلام أسلموا في الظاهر ، وكانوا يحملون في باطن أنفسهم عقائدهم السالفة . وبعضهم ظل على النصرانية أو اليهودية أو المجوسية ؛ وهؤلاء عرفوا القرآن ومنهم من كان يحفظه ،

والمؤكد أنهم عرفوا الخط العربى واللغة العربية ، خصوصاً عندما تم تعريب الأعاجم فى آخر الدولة الأموية .

فما لا شك فيه أن المسلمين فى القرنين الأول والثانى كانوا يقومون بتعليم هؤلاء القوم القرآن والكتابة فى سبيل الدعوة الإسلامية ، التى لا يمكن أن تتم إلا بالتعليم والتعلم .

والظاهر أن الدعوة لنشر الإسلام ركزت بعد القرن الثانى ، واكتفى المسلمون بما وصلوا إليه من فتوحات ، وما صحبها من انتشار الدين ، ثم انعكفوا على تثبيت العقائد من الزيغ والزندقة ، التى حاول اليهود على الخصوص أن يفسدها على المسلمين .

لهذا وجد الفقهاء من السلامة أن يقفوا فى وجه النصارى واليهود ، وأن يقيموا بينهم وبين الإسلام سدّاً منيعاً يحول دون النيل منه بشر أو سوء ، أو تغيير وتبديل ، أو تحريف وتحويل .

هذا الموقف الجديد يختلف عن موقف المسلمين فى صدر الإسلام فى صدر الإسلام ، فهو موقف دفاع لا موقف هجوم . ذلك أنه بعد أن اقتحم المسلمون الأوائل قلوب النصارى وغزوا عقائدهم ، واجتذبوا عقولهم ونفوسهم إلى الإسلام ، إذا بالمسلمين فى القرن الثالث والرابع يقفون موقف الدفاع عن أنفسهم وأبنائهم من هجمات النصارى واليهود وطعناتهم المسددة إلى العقائد الإسلامية . واستمرت حالة المسلمين فى هذا الموقف الدفاعى العاجز حتى العصر الحاضر ، إذ بدأ الأزهر فى مصر - وهو قلب الإسلام النابض - ينفض عن نفسه غبار الضعف ، ويزيل آثار الضعة والخوف ، وأخذ يشق الطريق من جديد لينشر الإسلام فى دول بعيدة أشد البعد عن مصر كاليابان ، وأرسل البعث الأزهرية إلى شتى الدول التى تحتاج إلى أنوار الدين منافساً فى ذلك المسيحية .

ودار البحث فى ترجمة معانى القرآن . وترجم القرآن فعلاً إلى كثير من اللغات الأجنبية ، وهى ترجحات موجودة بين أيدينا ، على الرغم من عدم اعتراف بعض المسلمين بها .

ثم كان من أهم آثار النهضة الأوربية الحديثة أن اهتم الغربيون بدرس العلوم الإسلامية فظهر المستشرقون ، وألفوا الكتب الحديثة في شتى المعارف الإسلامية ، ومنهم من يختص في علوم قرآنية صميعة كالقراءات والتفسير «وهؤلاء المستشرقون على الديانة النصرانية أو اليهودية ، ومع ذلك فهم يمسون المصاحف ، ويدرسونها ويتعمقون في بحثها ، وينشرون خلاصة أبحاثهم على العالم ، ويستقى الشرقيون من هذه البحوث ويأخذون منها في علمهم .

ولكننا لا نقول اليوم إن الكافر نجس لا ينبغي أن يعلم الخط العربي والهجاء حتى لا يمس المصحف كما يقول القابسي .

وتفسير هذا التحول الذى يذهب إلى التقيض يرجع إلى اختلاف الروح الاجتماعى ، فالجتماع الإسلامى الحاضر لا ينظر إلى غير المسلمين ، كما كان ينظر إليهم القدماء .

الاستظهار :

الطريقة في تعليم المنهج السابق لابد أن تعتمد على الحفظ والاستظهار ، وتعرف هذه الطريقة في علم الترية الحديثة بالتعليم اللفظى «وهذه الطريقة تختلف عن التعليم التجريبي المعتمد على التجارب والملاحظات ، كما هى الحال في دروس العلوم الطبيعية ، أو التعليم المهني ، الذى يوجه التلاميذ إلى تعلم الصناعات المختلفة .

ولم يكن معلم الكتاب مخصوصاً بتعليم المهن أو درس الطبيعة . وإنما كانت وظيفة المعلم القيام بتعليم القرآن والكتابة والنحو والعربية والشعر والحساب وأيام العرب . وهذه كلها علوم لفظية ، يقرأ التلاميذ ألفاظها ويسمعونها من المعلم . وعليهم استيعابها وحفظها .

فالمنهج بطبيعته يتجه إلى التعليم اللفظى ، ويعتمد على الذاكرة ، على الأخص إذا عرفنا أن القرآن وهو أهم العلوم يجب حفظه بألفاظه دون تحريف أو تبديل . لهذا السبب كانت الطرق التعليمية التى أوصى بها القابسي لا تخرج عن الطرق الموصلة

إلى جودة الحفظ ، وعدم النسيان فيما يختص بالقرآن .

وعنده أن طرق الحفظ ثلاث : التكرار والميل والفهم .

وقد جاء ذكر التكرار في حديث عن الرسول يختص بحفظ القرآن . قال :

« مثل القرآن كمثل الإبل المعلقة ، إذا عاهد صاحبها على عقلها أمسكها ، وإذا أطلقها ذهبت . إذا قام صاحب القرآن بالليل والنهار ذكره ، وإذا لم يقرأه نسيه » .

ويعلق القابسي على هذا الحديث قائلاً : « وقد بين في هذا الحديث كيفية المعاهدة

التي يثبت بها حفظ القرآن ويقوى على الحفظ حتى لا يتلثم فيه » ٢١ - ب .

والقابسي يذكر هنا مراحل الذاكرة الثلاث الأساسية وهي : الحفظ والوعى

والاسترجاع . وما نستخدم على تسميته الآن الوعى يطلق عليه التثبيت ، وسهولة

الاسترجاع هي عدم التلثم .

والميل هنا هو محبة القرآن ، فيؤدى إلى الإقبال على تلاوته ، وعدم الانصراف

عنه إلى شيء آخر ، بل يكون القرآن شاغلاً للذهن على الدوام . « قال معاذ

ابن جبل لأبي موسى الأشعري : كيف تقرأ القرآن ؟ قائماً وقاعداً ، وعلى

راحلي ، وأتفوقه تفوقاً » ٢٢ - ب .

أما الفهم فنأشئ عن الترتيل . وقد فسر القابسي معنى قوله تعالى : « أشد

وطئاً » . . . أى مواطأة للقرآن بسمعك وبصرك أى فهمك . وقال في فائدة

الترتيل : « إن الترتيل في القراءة يحى الفهم للعالم فيستعين به على التدبر الذى له

أنزل القرآن » .

ويرى الفقهاء الذين ألفوا في علوم القرآن هذا الرأى من النصح بقراءة التحقيق

والترتيل لفائدتهما في التعليم . فالتحقيق في القراءة : « يكون لرياضة الألسن وتقويم

الألفاظ ويستحب الأخذ به على المتعلمين » وذكر بعضهم : « أن التحقيق يكون

لرياضة والتعليم والتربص ، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط » (٢٣) .

وفى البرهان للزركشى : « كمال الترتيل نفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه

وألا يدغم حرف في حرف ، وقيل أقله ، وأكمله أن يقرأه على منازل فإن قرأ

تهديداً لفظ به لفظ للتهديد ، أو تعظيماً به لفظ التعظيم» (٣٤).

«وقالوا إن قراءة التدبر والتفهم هي المقصود الأعظم والمطلوب الأهم . وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به فيعرف كل آية . ويتأمل الأوامر والنواهي ، ويعتد قبول ذلك» (٣٥).

فالإجماع على قراءة القرآن بالترتيل حسب أمر الله وسنة الرسول ، مما يدعو دون شك إلى الفهم . وقد أيدت التجارب الحديثة في علم النفس أن الحفظ مع الفهم أسرع وأثبت ، وأدعى إلى عدم النسيان ، وأقوى على الاسترجاع . وكانوا ينصحون المتعلمين بهذه الطريقة .

ونحن لا ندري هل يستطيع الصبي الصغير أن يفهم معاني القرآن وأوامره ونواهي ، وما جاء فيه من وعد ووعد ، ودعاء وتضرع ، وطلب وتعوذ واستغفار ؛ إذ لا شك أن هذه المعاني أعلى من مستوى عقول الصبيان ، مما دعا أبا بكر ابن العربي إلى النصيحة بتأخير حفظ القرآن إلى سن متأخرة ، ووافق ابن خلدون على هذه الطريقة ، ولكنه آثر اتباع التقاليد فأوصى مع العرف بالبدء بتعليم القرآن . ولا يفوتنا أن نذكر أن الإعراب من دواعي فهم المعنى ، وكذلك الهجاء والكتابة . وكانت الطريقة هي حفظ السورة بإعرابها وحسن قراءتها ، مع الترتيل المؤدى إلى التدبر والتفكير . وهذا كله ينتهي دون شك إلى كمال الفهم . ثم أضاف القاسبي أنه : «من الاجتهاد للصبي ألا ينقله من سورة حتى يحفظها بإعرابها وكتابتها» ٥٩ - ١ .

ولا يفوتنا أن نذكر أن وسائل الحفظ مع الاستفادة من جميع الحواس أفضل من استعمال حاسة واحدة ، على الأخص إذا عرفنا أن بعض الناس بصريون وبعضهم سمعيون وبعضهم حركيون . فهناك من يحفظ عن طريق البصر بالقراءة لظاهرة الصامتة ؛ وهناك من يستفيد عن طريق السمع بالقراءة جهراً بصوت عال ، وهناك من يستفيد بالحركة عن طريق الكتابة . وهذه الوسائل كلها كانت

(٣٤) الإتيان للسيوطي ج ١ ص ١٨٣ .

(٣٥) الإتيان للسيوطي ج ١ ص ١٨٤ .

متبعة في تعلم الصبيان ، فالعين تستفيد من القراءة ، واليد من الكتابة ، والأذن من الاستماع .

وكانت العادة أن يقرأ الصبيان أحزابهم وهم جماعة ، ويستمع المعلم إليهم ، وعليه أن يأخذ باله من كل واحد منهم ، لأن : «اجتماعهم في القراءة يخفى عنه قوى الحفظ من الضعيف» ٦٩ - ١ وإذا اتخذ الصبيان من هذه القراءة أداة للهو والحقة ، فعليه أن يعالجهم باختبار كل واحد منهم على حدة ، فينصرفوا إلى الجد . «والجهر أفضل لأنه يوقظ قلب القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ويزيد في النشاط» (٣٦).

فإذا تعاونت هذه الوسائل كلها من التكرار والإقبال والفهم فلا شك أن يصل الصبي إلى حفظ القرآن . ولا علة له إذا نسي ، ولا علة لأحد في نسيان القرآن بعد حفظه ، لأن هذا دليل على التشاغل عنه ، أو لأن صاحب القرآن : قد يغلب عليه عمل يصرفه عنه ، وإما لأنه يعتمد التشاغل عنه بعمل من أعمال الدنيا أو من أعمال السفهاء ، وعندئذ ينسيه الله القرآن : «عقوبة لاشتغاله بسوء الاكتساب ، ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث (مألأحكم يقول نسي آية كيت وكيت بل هو نسي) معناه أن الله أنساه ما نسي» ١٩ - ب .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى ما هو أبعد من ذلك فاعتبروا نسيان القرآن من الكبائر : «صرح به النووي في الروضة وغيرها لحديث أبي داود (عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها» (٣٧) . والاختبار هو الوسيلة التي يعرف بها المعلم أجاد الصبي الحفظ أم لا . وأول درجات الإجابة والامتيان أن : «يستظهر الصبي القرآن حفظاً من أوله إلى آخره ، مع ضبط الشكل والإعراب والفهم وحسن الخط» ٧٠ - ب . ويقل عن هذا درجة من «يقرأ القرآن نظراً في المصحف مع ضبط الشكل والمجاء» ٧١ - أ .

(٣٦) الإتيان من ١٨٦ .

(٣٧) الإتيان من ١٨١ .

وآخر درجات الإجابة أن : « أن يملأ على الصبي فلا يتهجى ، ويرى الحروف فلا يضبطها ، ولا يستمر في قراءتها » ٧١ - ب .

ومن الصبيان من يبلغ درجة البلاءة . ومقياس ذلك عند القابسي أن يختبر : « فوجد لذلك لا يحفظ ما عُلِّم ، ولا يضبط » ما فهم ٧٢ - أ .

ونحن نرى أن موازين الاختبار لا تعتمد على الذاكرة وحدها ، بل على الفهم أيضاً . فهي اختبار للذاكرة والذكاء معاً .

ولا يجب أن تأخذ الفهم الذى ذكره القابسي على أنه مرادف للذكاء ، بل هو يستند إلى الذاكرة ، لأن إعراب الكلمات ، ومعرفة المعاني القرآنية مما يتلقاه الصبيان من أفواه المعلمين ويحفظونه عنهم ، ولا يصلون إليه من تلقاء أنفسهم .

ومن هنا يتضح لنا أن التربية العقلية عند القابسي تنتهى إلى كسب معلومات معينة ، وتعلب الذاكرة الدور الأول فى هذا الكسب ، وتخص بالذات الذاكرة اللفظية ، ومهمة الصبيان أن يحفظوا عن الكسب أو عن المعلم ، وأن يعيدوا ما حفظوا دون تعلم . والصبي الممتاز هو ذلك الذى يجيد حفظ كل ما لقن كلمة بكلمة ، وحرفاً بحرف .

ولسنا فى حاجة إلى بيان فساد هذه الطريقة التى تعتمد على الاستظهار والتسميع ؛ وقد هاجم موتسنى هذه الطريقة فى شدة ، ومما يؤثر عنه قوله : « لا معرفة مع الاستظهار » (٣٨) .

وقد انتهى بعض العلماء إلى ازدراء الحفظ ، والعمل على الحد من الغلو فى التذكر اللفظي ، فنظروا إلى الحفظ كأنه من العمليات العقلية الوضيعة ، مؤيدين وجهة نظرهم بأن كثيراً من البلهاء وضعاف العقول ينعمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكياء ذاكرتهم ضعيفة (٣٩) .

ولكن ازدراء الذاكرة والنظر إليها هذه النظرة القليلة الأهمية ، فيه بعد عن الحقائق النفسية . وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة

Savoir par coeur n'est pas savoir.

(٣٨)

Tendances de la Pédagogie Contemporaine. Ch. VII. Les Grandes

(٣٩)

يؤدى إلى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك .

ومما لاشك فيه أن الذاكرة الجديدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان ، لأنهم فى حاجة إلى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيائية التى تتألف منها مبادئ المعرفة الصحيحة الضرورية .
ولا يستطيع الإنسان إجادة اللغة دون معرفة كثير من الألفاظ وقواعد النحو والصرف .

وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضاً بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخدم الذاكرة فى سرعة التحصيل ، وجودة الحفظ ، وسهولة الاسترجاع . وفى ذلك يقول وليم جيمس : «إن فن التذكر هو فن التفكير»^(٤٠) .

والخلاصة أننا لا ينبغي أن ننظر إلى الذاكرة كما كان علم النفس القديم ينظر باعتبار أنها ملكة مستقلة من ملكات العقل ، إذ الواقع أن الحياة العقلية كلها وحدة متماسكة ، تتعاون فيها جميع المواهب النفسية على العمل .

قال الأستاذ ببيرون : «ومكانة الذاكرة فى حياة الإنسان عظيمة القدر . ومن جهة أخرى فالشخص المثقف ، المضطرب إلى مسابرة تقدم المعرفة على ممر العصور ، وهى معرفة لا تنفك عن الاتساع والانتشار بالرغم من وسائل التبسيط ، هذا الشخص فى حاجة دائمة إلى الذاكرة . والمجتمع يزن أقدار الطلاب العقلية إذا تقدموا للوظائف بميزان ما حصلوه من الحفظ . وقد نتج عن ذلك ضرورة عملية هى بذل جهد عظيم تحمله الذاكرة»^(٤١) .

فالحياة العقلية للفرد لا تنفصل عن الحياة الاجتماعية بل هى جزء منها . والطريق الذى تسلكه الحياة العقلية يستضىء بهدى المجتمع ، ويتأثر به . وفى الوقت نفسه تشكل الحياة العقلية بحيث تلائم المجتمع .

وقد كان المجتمع فى عصر القابسى يريد معرفة القرآن وما يتصل به من علوم تعين

Talks on psychology, William James, p. 14.

(٤٠)

Nouveau Traite de Psychologie, Dumas, Tome IV p. 128-129.

(٤١)

على فهمه والتمكن منه ، ولا يرغب في غير ذلك من علوم طبيعية أو خلافها .
ومن الطبيعي أن تكون الطريقة الملائمة لتحصيل القرآن هي الحفظ والتذكر .

تكوين الشخصية :

كبت مدام متسورى تقول : « إن أهم ما يميز التربية الحديثة هو احترام شخصية الطفل إلى حد لم يبلغه من قبل »^(٤٢) .

ونحن لا نتفق مع هذه المرية في الحكم على الماضي ، فقد يكون هذا الرأي صحيحاً بالنسبة إلى التعليم في أوروبا ، ولكنه غير صحيح على إطلاقه عن التعليم في الكتابات ، ذلك أن شخصية الطفل كانت محزنة إلى حد كبير في الكتابات الإسلامية كما يتضح في رسالة القاسبي .

ونحب أن نوضح معنى الشخصية قبل الاستطراء في الكلام عن أثر التربية الإسلامية في تكوينها ، نظراً إلى ما يلبس هذا الاصطلاح من غموض .
فالشخصية على المعنى النفساني نسبة إلى شخص ، ولهذا كان كل فرد صاحب شخصية . ولكنهم يقصدون عادة من الشخصية ما كانت قوية لا ضعيفة ، وما كانت صالحة للحياة مؤثرة في المجتمع ، لا تلك التي تعجز عن العمل ، وتنساق في تيار المجتمع وإلى دوافع الفطرة دون إرادة وتميز أو قصد وشعور .

والغرض من التربية هو تكوين الشخصية القوية الصالحة . ولا يتنافى هذا الغرض مع ما سبق ذكره من أهداف للتربية ، مثل تنمية مواهب الطفل ، أو إعداده للحياة الاجتماعية ، أو دفعه في سبيل التقدم والرق . لأن صاحب الشخصية هو ذلك الذي شحذت مواهبه ، واستلأت جمعبته بأسلحة الكفاح في الحياة الاجتماعية ، وتهاً للتقدم المطرد والرق المستمر . والتقدم هو سنة الوجود ، ودليل الحياة الصحيحة .

وكمال الشخصية في العلم والعمل ، والفكر والإرادة . والسلوك هو الغاية الأخيرة التي نقصدها من التربية ، بل من الحياة كلها ، أما تثقيف العقل ، وحسن

التفكير ومعرفة العلم فكلها وسائل إلى السلوك المطلوب ، حتى يستند إلى أساس من المعرفة الصحيحة .

وكان المطلوب في عصر القابسي تكوين الشخصية الدينية ، يؤمن صاحبها بالله ، ويعتقد بوجوده ، ويعبده آتاء الليل وأطراف النهار ، ويدكره في كل عمل من الأعمال ليميز بين الحلال والحرام .

وقد اختلفت أهداف التربية الحديثة في الممالك المختلفة ، ففي أمريكا يرمون إلى تعلم المهنة التي يكسب منها الإنسان معاشه . وفي إنجلترا يهيئون الفرد ليكون مهذباً رشيقاً أو على حد تعبيرهم (جتلمان) . وفي فرنسا يقصدون من التربية الثقافة العقلية وكسب المعارف النظرية^(٤٣) .

وتختلف شخصية الأفراد في البلاد المختلفة تبعاً لاختلاف الحياة الاجتماعية وما تطلبه هذه المجتمعات من أبنائها .

ومهما يكن من شيء ، فالشخص الذي يريد أن يشق طريقه في المجتمع ، لابد له من إعداد نفسه للترؤل إلى معترك الحياة . وفي هذه الحالة يشعر بنفسه مستقلاً عن غيره ، فيعمل على الاستجابة للتأثيرات الاجتماعية ، ثم ينصرف بما يلائم مصلحته الخاصة ومصلحة المجتمع .

وشعور الإنسان نفسه هو المحور الذي تدور عليه الشخصية ، والذي به يتم التأثير المقصود الصادر عن الشعور . وعندما يشعر بشخصه ، ويحس بكيانه كفرد مستقل ، يدرك أن لا سبيل له إلى السلوك الصحيح إلا بكسب المعرفة والتريد من العلم .

والغرض من التربية والتعليم هو تزويد الأفراد خلاصة الحضارة السائدة في المجتمع في وقت وجيز ، حتى إذا كبر الطفل كان على استعداد لمواجهة مطالب الحياة الاجتماعية .

وفي زمن الطفولة يكون الصبي عبئاً على أهله في كل شيء . وليس هذا من

مصلحته أو مصلحة المجتمع . ومصلحة الطفل أن يعتمد على نفسه ، أو أن يتعلم الاعتماد على النفس حتى يستمد أسباب القوة المعينة على التقدم والنجاح . ومصلحة المجتمع في وجود أفراد من أصحاب الشخصيات القوية حتى يرتقى المجتمع . أما العاجزون فهم عبء ثقیل يسوق المجتمع إلى التأخر والضعف والانحلال .

ولم ينس القاسي وهو يقوم على تربية الأطفال أن يمهّد لهم سبيل تكوين الشخصية القوية التي يعتمد صاحبها على نفسه ، ويستطيع أن ينهض بما تتطلبه حاجة البيئة ومطالب المجتمع . وعنده أنه لا بأس أن يقوم الصبيان بأعمال لها فائدة في تخريجهم .

منها أن يكتب الصبي للناس . سئل القاسي : « هل يؤذن للصبي أن يكتب لأحد كتاباً ؟ » فقال : لا بأس ، وهذا مما يخرج الصبي إذا كتب الرسائل .

٦٣ - ١ .

ومنها أن يعلم بعضهم بعضاً : « ولا يحل له (أى المعلم) أن يأمر أحداً أن يعلم أحداً منهم إلا أن يكون فيما فيه منفعة للصبي في تخريج » ٦٣ - ب .

ومنها أن يعلّم بعضهم على بعض ، وذلك في الأوقات التي يستغنى فيها الصبيان عن المعلم : « مثل أن يصبروا إلى الكتابة ، وأمل بعضهم على بعض ، إذا كان في ذلك منفعة لهم ، فإن هذا قد سهل فيه بعض أصحابنا » ٦٤ - ١ .

فن المنفعة لهم أن يعلّم بعضهم على بعض ، وعلى المعلم « أن يتفقد إملاءهم »

٦٣ - ١ .

ومنها أن يجعل على الصبيان عريقاً . والعريف هو الصبي البارز في العلم يقوم بتعليم الصبيان إذا كان في ذلك منفعة في تكوينه . وقد أجاز الفقهاء هذه الطريقة في التعليم . سئل مالك عن المعلم يجعل للصبيان عريقاً فقال : « إن كان مثله في نفاذه » ٦٣ - ب .

وعن سحنون : « وأحب للمعلم أن يجعل لهم عريقاً منهم ، إلا أن يكون الصبي الذي قدمهم وعرف القرآن ، وهو مستغن عن التعليم ، فلا بأس أن يعينه ، فإن ذلك منفعة للصبي » ٦٣ - ب .

وهذا كله يتعارض مع قول مدام متيسورى من أن التربية القديمة لم تكن تحترم شخصية الطفل . ذلك أن تكليف الصبيان بهذه الأعمال كلها ، مثل كتابة الرسائل للجمهور وإملاء بعضهم على بعض ، واضطناع العريف يعلم غيره من الصبيان ممن هم أصغر منه سنًا وأقل علماً . دليل على احترام شخصية الصبي ورفع قدره والسمو بمركزه . إذ أنه يتخذ مركز المعلم نفسه .

ولم تكن شخصية الصبي محترمة في العلم فقط ، بل في شئون الدين أيضاً ، فقد أجاز القابسى أن يؤم الصبي إذا بلغ سن الاحتلام وصلح لإمامة غيره من الصبيان في صلاة الجماعة : «لكى يتدرجوا على معرفة صلاة الجماعة» ٧٠ - ١ . هذه حياة كلها جد ، وكلها تشبه بالرجولة ، لأن الطفل الصغير ينظر إليه كأنه رجل كبير ، فيكلف أعمال الرجال .

وكانت التربية القديمة تضحى بمرحلة الطفولة في سبيل الإعداد للرجولة . وكانوا يرغبون الطفل على سلوك مسلك الرجال وتعلم أعمالهم وإلا وقع عليه العقاب .

ومن الخطأ الاعتقاد أن سعادة الرجولة تشتري على حساب الطفولة . حقاً أن الحياة الاجتماعية فيها كثير من القسوة وتحتاج إلى كثير من الجِدِّ ، ولهذا ينبغي أن يهيأ الطفل لحياة الجِدِّ حتى لا يصدم بما فيها من صعاب وعقبات في المستقبل . ولكن الجِدِّ لا يستلزم العبوس الدائم ، والشدة المستمرة . وقد نهى القابسى عن العبوس في غير حاجة إليه . كما اللهو لا يعنى المرح المتلاحق ، أو اللعب الذى لا انقطاع فيه .

على أن حياة الطفولة ينبغي أن تنصرف إلى اللعب أكثر منها إلى الجِدِّ ، وأن يكون قسط المرح والسرور فيها كبيراً . ذلك أن شقاء الطفولة يترك في النفس آثاراً لا تمحى وذكرىات أليمة تلقى على الرجل ظلاً كثيفاً من الكآبة والنشأوم من الحياة . لهذا كان من الخطأ أن نحمل الطفل في وقت مبكر متاعب الحياة وآلام العيش . إننا نخاطر بإضعاف القوى الكامنة في الفرد ، بتحميلها فوق ما تطيق ، فتنوء في المستقبل بأعباء الحياة الجسم . وقد أوضح روسو في كتابه إميل أن واجب المربين التربية في الإسلام

إسعاد الطفل على قدر الاستطاعة حتى يحس الإحساس الصادق بالحياة ، ويتذوق لذة الوجود .

من هذه الناحية نستطيع أن نلوم القابسي ، مع التربية القديمة كلها . لأنه كان يأخذ الصبيان بحياة الجد ، وينهى عن اللهو واللعب .

ثم إن نمو شخصية الطفل لا يتطلب المحافظة على مواهبه من الضمور والانحلال فقط ، وإنما يتطلب شق الطريق أمام هذه المواهب لتتفتح وتقوى . ولا ينبغي الوقوف في سبيل الطفل ، بل لا بد له من حرية العمل ليكون المجال أمامه فيحاً للظهور .

وقد رأينا كيف ترك القابسي الحرية للصبيان لأن يقوموا بكثير من الأعمال التي تصلح لتخريجهم ، وبذلك تنمو فيهم المواهب الملائمة لمطالب المجتمع .

ولكن القابسي كان مقيداً بعصره ، ولم يعمل على سبق الزمان وتهية الأجيال القادمة للتقدم والرقى ، فاكتفى بإعداد الصبيان لحياة الحاضر ، بل لحياة شبيهة بالماضي ، فهو يدعو إلى معرفة ثقافة السلف ، ويطلب التمسك بها ، والنسج على منوالها ، وعدم التحول عنها .

لهذا عجزت شخصية المتعلمين عن مسايرة التقدم في الحياة ، إلى أن تغيرت البيئة الاجتماعية في العصور الأخيرة ، لأن تكوين الشخصية على الطريقة التي يريدها القابسي مقيد بالمجتمع الذي كان يعيش فيه . وكان همه الأكبر أن يصنع شخصية دينية وخلقية .

أما الشخصية الدينية فإن تعلم القرآن والقيام على الصلاة في أوقاتها مما يكفل طبعها على ذكر الله .

والشخصية الخلقية مطلوبة على كل حال ، ولو اضطرننا ذلك إلى إرغام الأطفال . إذ مما لا شك فيه أن الإنسان ينبغي أن يلتزم حدود نفسه فلا يتعدى على غيره باغتصاب أو إيذاء أو ضرب أو سرقة أو أى شيء من ضروب الرذائل التي ترجع في النهاية إلى الاعتداء على شخص الغير أو ملكه ، ولا يتسنى هذا كله إلا إذا ميز الإنسان نفسه ، وشعر بوجود شخصه واعتقد في حريته ، ومسئوليته عن أعماله .

ولابد للإنسان إلى جانب ذلك من تكوين عادات صالحة يصبح معها من ذوى الخلق المستقيم ، كالصدق والأمانة والشجاعة وحب النظام والنظافة إلى آخر هذه العادات المختلفة : مما ذكرناه عند الكلام في التربية الخلقية .

ولا يتم تكوين الشخصية الخلقية ، بتشييد العادات الفاضلة ، وتهذيب الضمير ، إلا بالتعليم والتربية .

ويرى ولیم جیمس أن التربية هي تنظيم العادات والتزعات التي ترمى إلى السلوك الحسن^(٤٤) . وقد فطن القابسي إلى أثر العادة في طبع للشخصية ، فنصح بالمبادرة إلى تكوين العادات الخلقية الفاضلة ليألفها الصبيان .

ومما لا شك فيه أن الكتاب الإسلامي كان له أثر كبير في خلق الشخصية القوية الملائمة للمجتمع في القرن الرابع الهجري . فالصبي بعد ذهابه إلى الكتاب يصلح لإمامة الناس في الصلاة ، فضلاً عن معرفة أسرار الفروض والنوافل ، مما يرفع قدره ويسمو بمركزه ، وكما يتقدم إليه العامة فيكتب إليهم الكتب والرسائل . وبعض الصبيان قد يحتم القرآن وهو أهم أنواع المعرفة وأوجبها ، فضلاً عن معرفة العربية وأيام العرب والشعر ، وبذلك يتهيأ له السبيل إلى بلوغ مراتب العلماء .